

المدن الفينيقية في الحقبة الرومانية

من كتاب لبنان والبلدان المجاورة

للمؤرخ اللبناني الكبير جواد بولس

خلال الحقبة التي سيطر فيها الرومان على بلاد فينيقيا "لبنان حالياً" ما بين سنة ٦٤ ق م. وسنة ٦٤٠م. وعلى طول الشاطئ اللبناني جرى توطيد أوضاع الحكم في المجتمعات المدنية. فمدن صور وصيدا وجبيل وارواد وغيرها، فقدت ملوكها، لكنها حصلت على امتيازات وغدت تتمتع بحكم ذاتي، بواسطة حكام إداريين أو قضاة، كما كانت تصك نقوداً خاصة بها. واخيراً فاز بعضها بلقب "مستعمرة" وبذلك اصبح سكان هذه المستعمرات "مواطنين رومانيين". وقد كان من لا يحملون لقب "المواطنين" يدفعون ثلاثة أضعاف الضريبة التي يدفعها حاملوا هذا اللقب.

مدينة جبيل: صكت نقوداً باسمها. وكانت هذه النقود تحمل رسم هيكل الآلهة عشتار، كشعار للمدينة، وهي مدينة المؤرخ الفيلسوف فيليون الجبيلي ولد سنة ٤٢ ق.م. وفيلون هذا هو مؤلف تاريخ فينيقيا، وكان ترجمه عن مؤلف لسكونياتون، الكاهن الفينيقي المولود في بيروت حوالي القرن الحادي عشر قبل الميلاد. وجبيل، كانت دائماً مركزاً دينياً كبيراً ادونيس، ازيسحتور، اسطورة اوزيريس وغيرها. وفي كل سنة كانت تأتيها جماعات للحج، وكان احد اكبر أعياد فينيقيا هو ذكرى موت ادونيس كان يحتفل به في الصيف في الجبل عند مغارة أفقا قرب جبيل. وفي الحقبة الرومانية، كانت هذه الأعياد تمثل دوراً كبيراً. ولذلك كانت جبيل، مع المنطقة المجاورة لها، من اكبر مراكز العبادة في الشرق جميعاً. وقد غدت بعد المسيحية مركزاً لكرسي أسقفية.

مدينة صيدا: كانت صيدا من سنة ٤٠ ق.م. حتى سنة ١٨م. شبه جمهورية، لها حكامها الخاصون. وكان مجلس شيوخها جمعية من الشعب. ومنع احتفاظها بحريتها، حصلت على لقب "مستعمرة"، وكانت تمارس نشاطاً تجارياً هاماً وتملك مدرسة للفلسفة تدرس مذهب أرسو. وفي القرن الرابع غدت صيدا مركزاً لكرسي أسقفية.

مدينة صور: كانت صور ذات حظوة عند الرمان، "بسبب انتشار تجارتها وبخاصة بسبب صناعة الأرجوان والزجاج المزدهرة دائماً فيها". وهي كانت مركزاً ثقافياً أيضاً وتملك مدرسة

للفلسفة الرواقية. ومن أبناء صور كان المشرع الشهير "اوليان"، وكان يشغل من سنة ٢٢٢ حتى سنة ٢٢٨ م.، اي وهي سنة وفاته، رئاسة القضاء البريتوري في روما، اي اعلى مركز في الإمبراطورية. وهو احد خمسة فقهاء كلاسيكيين اتخذ رأيهم كقانون وعمم على القضاة الرومان سنة ٤٢٦ م. ومن أبناء صور ايضاً : الجغرافي مارينوس، والفيلسوف الرواقي الأفلاطوني مكسيموس، معلم الإمبراطور الفيلسوف مارك اوربل ١٦١-١٨٠م. وكذلك الفيلسوف برفوريوس ٢٣٤-٣٠٥م. من مذهب الأفلاطونية الحديثة. وكان اسمه الحقيقي "ملك"، ودعي بورفير، بسبب البورفير الأرجوان الذي يصنع في بلده. وبعد وفاة فيلسوف الأفلاطونية الحديثة أفلاطون ٢٠٥-٢٧٠م. تسلم بورفير إدارة مدرسته في روما. وبعد ان تحولت صور الى المسيحية حوالي نهاية القرن الثاني، أصبحت مركزاً لكرسي مطرانية، ترأس اربع عشرة أسقفية. وفي القرن الرابع، كانت قد استعادت جزءاً من ازدهارها القديم، واصبح لها كنيسة كاتدرائية. وفي سنة ٣٣٥م، كانت مركزاً هاماً انعقد فيه مجمع مسكوني.

مدينة بيروت: بعد ان رفعها أغسطس الى مرتبة "مستعمرة"، وازدانت بمنشآت كثيرة، كالمعابد والحمامات والمسارح وغيرها، أصبحت مقراً لفرقتين عسكريتين رومانيتين، وقاعدة للأسطول الروماني في جنوب شرقي المتوسط. وقد فاخرت بطابعها اللاتيني جاراتها ذات الطابع الهليني. وفي منتصف القرن الثالث، غدت بيروت مدينة ثقافية ومركزاً لمدارس هامة، كانت احدها مدرسة حقوق شهيرة، وصفت بانها احد انشط مراكز علم الحقوق في الإمبراطورية الرومانية. "وفي نهاية القرن الرابع. كانت لا تزال من أهم المدن في فينيقيا". وكانت المسيحية دخلتها مبكراً، حيث غدت، في القرن الرابع، مركزاً لكرسي أسقفية.

مدينة طرابلس: بعد السلوقيين، زين الرومان هذه المدينة بمنشآت فخمة، بينها معابد متعددة.

مدينة بعلبك هليوبوليس: كانت مدينة دينية غامضة حتى هذا التاريخ، وكانت، كما يبدو، نالت اسم هليوبوليس بعد فتح الاسكندر. والاسم اليوناني هذا يعني "مدينة الشمس"، حيث كان الإغريق وحدوا بين البعل السامي المحلي والههم الشمس هليوس. وفي ظل حكم اوغسطس أصبحت هليوبوليس، كبيروت، مستعمرة رومانية. وقد عرفت طقوس العبادة فيها انتشاراً عظيماً. كانت بعلبك، قبل فتح الاسكندر، مركزاً للإله الفينيقي "بعل"، الذي أخذت منه اسمها السامي

"بعلبك" اي "بعل بعلبك"، وقد عُرفت هليوبوليس، في حدود سنة ١٥٠م.، نهضة مرموقة وغدت العاصمة الدينية لسوريا الرومانية. واصبح الإله السامي "شمس" معروفاً باسم "جوبيتر الهليوبوليسي". وقد عُبد منذئذ في الغرب، وبنى له الأباطرة الرومان، في بعلبك نفسها، معبداً ضخماً حل محل المزار المتواضع. وقد بدأت أعمال البناء أثناء حكم اوغسطس، ودامت بلا انقطاع حتى القرن الرابع، من اجل إنشاء ثلاثة هياكل على شرف الآلهة الثلاثة من المثالث الهليوبوليسي: جوبيتر، وفينوس، ومركور او وسمس. وخلال حكم الإمبراطور قسطنطين 323-337 جرى تحويل المعبد الوثني الى كنيسة، يقوم على رأسها اسقف. وفي سنة ١٦٦٤م. ثم في سنة ١٧٥٠م. حدثت زلازل أرضية هزت بعلبك، وهدمت هياكلها. ولا تزال الانقاض الضخمة تشهد للماضي المتألق لهذا المشروع الجبار. ولكن لم تترك الهزات الأرضية لنا سوى ستة أعمدة منتصبة من اصل أربعة وخمسين عموداً، كان يقوم عليها هيكل جوبيتر.

مدينة عنجر كالمشيش: بين السلسلة الغربية والسلسلة الشرقية من جبال لبنان، في منطقة البقاع، تقع عاصمة المملكة العربية الايطورية، التي نالت من الرومان رتبة "دولة إقليمية". وكان هؤلاء الايطوريون، كما يبدو، من البادية السورية، حيث كانوا في حالة شبيهة بالبدواة، ويتكلمون الآرامية، اللغة التي كانت لا تزال هي الدارجة آنذاك.

تغيير الدين واللغة والاسم: في الحقبة الرومانية عرفت فينيقيا تغييرات كبيرة، وبخاصة في الدين واللغة والاسم وغير ذلك، مما حمل على الاعتقاد، خطأ، بأن الفينيقيين لم يبق لهم وجود في تلك الحقبة، وقد حلت محلهم شعوب جديدة نازحة.

الدين: دخلت المسيحية مبكراً الى فينيقيا. ومنذ منتصف القرن الأول قام القديس بولس الرسول بزيارة صور وصيدا. وكان في كل منهما جماعة مسيحية وكنيسة. وبعد نشر مرسوم ميلان، سنة ٣١٣م.، الذي منح المسيحيين حق ممارسة دينهم، "اخذت الوثنية تتكفى ببطء، من المدن اولاً، ثم من الأرياف. وقد وجدت آخر ملجأ لها في جبل لبنان، وفي مدينة بعلبك. وفي ظل حكم الإمبراطور قسطنطين، انتصرت المسيحية على الوثنية في الإمبراطورية الرومانية. وقد تقاسمت عدة طوائف مسيحية شعوب الشرق المتوسطي: الأريوسية، النسطورية، والمونوفيزية، وغيرها. وتمشياً مع التقاليد الفينيقية المتسامحة والمتحررة، تقلبت فينيقيا عدة جماعات من المؤمنين المنتمين لطائفة او لأخرى من هذه الطوائف، تماماً كما تقلبت في عهد الوثنية شيع الآلهة: ايل والبعل وغيرها. فالوحدة من خلال التنوع، مع الحرية، هذا ما نجده دائماً تحت السماء اللبنانية

المتسامحة، وفي ظل جبل لبنان المضياف.

اللغة: في ظل الحكم الروماني، بدأت اللغة الكنعانية الفينيقية تضمحل، بعد أن سادت فينيقيا منذ أوائل الألف الثالث قبل الميلاد. فقد تخلت عن مكانها للغة سامية شقيقة هي اللغة الآرامية، التي حلت محل الامورية في سوريا قبل ألف عام، ثم احتلت مكان الاشورية - البابلية في بلاد الرافدين قبل خمسمئة سنة، ومكان العبرية في فلسطين قبل الميلاد بثلاثمئة سنة. فمذ سنة ثلاثمئة قبل الميلاد، كانت الآرامية بدأت تنتشر في فينيقيا، ولكن الفينيقية بقيت لغة المعاملات والأعمال الرسمية حتى القرن الأول قبل الميلاد. وفي أوائل التاريخ الميلادي كانت اللغة الفينيقية، التي اختلفت من الكتابات، لا تزال مستعملة في جبيل وفي صور وفي المناطق الريفية. وفي القرن الثاني، كانت الكتابات الأسطورية على العملة أصبحت تكتب باليونانية وليس باللغة الفينيقية. وحوالي هذا الزمن، توقف استعمال اللغة الفينيقية في فينيقيا، إذ حلت محلها اللغة الآرامية كلغة محكية، بينما غدت اللغة اليونانية لغة الأدب والتجارة، واللغة اللاتينية لغة الإدارة. وفي القرن الثالث، لاقت الآرامية حظوة في فينيقيا وسوريا وفلسطين، مع انتشار المسيحية، لكونها اللغة التي كان يتكلمها السيد المسيح، وبخاصة منها اللهجة السريانية، التي غدت لغة نشر الأيمان المسيحي. فاللغة السريانية، لغة كنيسة اديسا (اورفا او الرها) في اعلى بلاد الرافدين، كانت اللغة المفضلة للأدب والكهنة في أديرة بلاد الرافدين وسوريا. اجمالاً، ومع المسيحية، اصبح آراميو سوريا، الذين تبناوا لغة أديسا الآرامية او السريانية، لغة الكنيسة، أصبحوا يعرفون باسم "السريان" أو السوريين، لتميزهم عن مواطنهم الذين بقوا على الوثنية ويستعملون اللغة الآرامية. وهكذا انحسر الاسم السامي الآرامي تدريجياً، أمام الاسم السوري، ذي الأصل الإغريقي. وبوجه عام، فان اللغة الإغريقية، في ظل السيطرة الرومانية، كانت لغة الفلاسفة والأدباء، واللاتينية لغة الحقوق والجيش. اما الشعب فكان يتكلم الفينيقية، ثم الآرامية، ثم السريانية.

الاسم: في العهد الروماني غدا كنعانيو لبنان، اي الفينيقيون، الذين اندمجت بلادهم بالولاية الرومانية السورية، يعرفون في روما، وفي غالبا (فرنسا) وفي باقي بلاد العالم الغربي، باسم "سوري" (سوريون او سريان). وحدث هذا بعد الف سنة من تسمية الإغريق لهم بالفينيقيين. ومن جهة أخرى، وعلى اثر انتشار اللغة السريانية في فينيقيا وفي بلاد الآراميين (سوريا)، ولكونها اللغة الآرامية المسيحية، غدا مسيحيو فينيقيا وسوريا يعرفون بالسريان، بعد تبنيهم اللغة السريانية في طقوسهم الدينية. وأصبحت لفظة "آرامي" في نظر المسيحيين واليهود مرادفة لكلمة "وثني".

فاسم السريان كان يعني، اذاً، في الأصل، جماعة من المؤمنين المسيحيين، ولم يحمل الا مؤخرأً معنى "الجماعة" العرقية (الاثنية) او القومية التي كانت تقيم في بلاد الآراميين القديمة، التي أصبحت سوريا فيما بعد. وفي هذه الإثناء، وبينما كلمة "سريان" كانت تعني، في فينيقيا، المسيحيين من المواطنين الأصليين، نجد بالمقابل، وبالنسبة لمجموع السكان من مسيحيين ووثنيين، أن الاسم العام، أي بلاد كنعان او فينيقيا، قد بقي. والأنجيل المكتوبة بالآرامية او السريانية تدعو هذه البلاد "كنعان" بينما تلك التي كتبت باليونانية تدعوها "فينيقيا" او "سورياً".

الخلاصة: هكذا جرى بالتدرج تغير الاسم واللغة والدين في فينيقيا بعد الفتح الروماني، مما جعل مؤرخين عديدين يعتقدون بأن مجموع سلالة هذا البلد العرقية، التي عاشت فيه منذ ما يقارب ثلاثة الآن سنة قبل ذلك التاريخ، قد اضمحت وحلت محلها جماعات من الآراميين جاءت من سوريا المجاورة. والحقيقة هي ان العناصر السلالية نفسها بقيت في فينيقيا، بعد الفتح الروماني، مع صفاتها الأساسية الجوهرية التي اتصفت بها منذ الأساس. وهذه الصفات كانت تتكيف باستمرار لتلائم الوسط الجغرافي الفينيقي، وهي عينها المميزات الخاصة للأجيال الفينيقية السالفة. فالاسم واللغة والدين، هي التي تغيرت فقط. وهذه، كما نعرف، هي أشكال سطحية في السلالات وقابلة للتغير، لكنها لا تستطيع تغيير الروح الأصلية الدائمة للسلالة العرقية. ونحن نرى، بعد الفتح الروماني، كما قبل هذا الفتح، ان نشاط السكان في فينيقيا بقي على النمط ذاته في حقل الاقتصاد والاجتماع والثقافة. وهناك ظاهرة مماثلة سنها بعد ذلك، في فينيقيا، بعد الفتح العربي الإسلامي، الذي لم يغير تغيراً جوهرياً الصفات السلالية للسكان، وانما كانت نتيجته البارزة هي إحلال اللغة السامية العربية محل اللغة السامية الآرامية، مع إضافة الدين الإسلامي بشيعة المختلفة الى الدين المسيحي وطوائفه المتعددة، وكلا الدينين ساميان.

النشاط التجاري والتوسع نحو الغرب: حقق السلم الروماني فترة طويلة من

الازدهار. فقد تطورت الزراعة والصناعة، وتابع الفينيقيون، كعادتهم، تصدير الخمر والخزف والزجاج، والأنسجة الصوفية والكتانية المصبوغة بالأرجوان، وكانوا يشحنون بضائعهم الى الخارج، ويقيمون مراكز توزيع لسلعهم في الأسواق التجارية الكبرى. وقد رأينا ان الفينيقيين، بعد الفتح الروماني، وبعد ان دمجوا بالولاية الرومانية السورية، اصبحوا يُدعون "سوريين" في الغرب، كما بعد انتشار المسيحية في فينيقيا أصبح الذين تحولوا الى مذهبها يدعون "سرياناً" (سوريون)، وذلك تمييزاً لهم من أبناء جنسهم الذين بقوا على الوثنية ولقبوا "آراميين". ومنذ العهد

الأول للتسلط الروماني، نجد الفينيقيين يتابعون تقاليد أسلافهم، وينتشرون في جميع مناطق العالم الروماني وبخاصة في الغرب: أنها الحقبة التي استعمر فيها التجار السوريون (اي الفينيقيون) الإمبراطورية الرومانية. "طور الفتح الروماني الإمكانيات الفينيقية نحو الغرب، فالطرق التجارية امتدت شبكاتها على حجم الإمبراطورية ذاتها. وقد شملت هذه الشبكات الرين والدانوب واسبانيا وانكلترا. وكانت سوريا وفينيقيا وفلسطين في قمة ازدهارها. وجميع المدن اتسعت وتغيرت، فعمرتها المنشآت المدنية. وقد أعيد النظر بجيبيل من الأساس، فتكيفت وفق الخطة المدنية الجديدة ... إذ كانت في تلك الأثناء مدينة صغيرة، بالقياس الى انطاكيا وبيروت وصيدا وصور، وكانت عظمتها بكونها مركزاً لعبادة أدونيس". "نما نفوذ السوريين (اي الفينيقيين) نمواً مرموقاً في روما، حيث كانوا بعدد كبير هناك، فاصبح عدة باباوات من اصل سوري ... فهم منتشرون في جميع الموانئ، ولكن نجدهم في الداخل كذلك. ففي ظل الإمبراطورية كانوا يملكون مؤسسات في الإسكندرية وفي روما وفي إسبانيا وفي غاليا وفي بريطانيا العظمى ... وتؤكد كشوف الآثار هذا الانتشار السوري، كما ان النصوص تدل عليه ايضاً".

فينيقيا في ظل الإمبراطورية البيزنطية ٣٣٠-٦٤٠: في العهد البيزنطي عرفت فينيقيا فترة ازدهار كبير في أعمالها التجارية وقد ظهرت قرى عديدة في كل مكان وأصبحت جيبيل مركزاً لكرسي أسقفية واتسعت واكتظت بالسكان. وقد أتاح التوسع السكاني والتجاري للفينيقيين نحو الغرب مع نشاطاتهم الثقافية فرصة لغزو أسواق أوروبا . وغدا اسمهم "السوري" مرادفاً لكلمة تاجر، ويدل على جميع التجار الشرقيين في الغرب. "كانت سفنهم تجوب جميع أنحاء المتوسط. وقد ملكوا مستعمرات هامة في المدن الرئيسية لإسبانيا وإيطاليا وغاليا (فرنسا)، حتى ليجدهم المرء على مرافئ البحر الأسود، كما يجدهم على شواطئ مراكش. وقد تجددت تجارة الأنسجة بعد إدخال دودة الحرير" الى بلادهم. وفي روما كان الفينيقيون بأعداد كبيرة. وفي فرنسا حيث لم تتقاعس هجرتهم، غدا لهم نفوذ مرموق في المراكز الكبرى وبخاصة في باريس حيث انشأوا تحت اسم "سوريون" مستعمرة كثيرة السكان في العهد الميروفنجي ٤٨١-٧٥١م. وفي باريس كان اوزبيوس التاجر من اصل سوري، وبفضل الذهب اشترى رتبة الأسقفية. ثم بعد ان ورث الحاشية من سلفه ملاً مراكز أعضائها بالسوريين، وهذا يعني ان هؤلاء كانوا كثيري العدد هناك. ولكن الأمر طبيعي ان يكثر تجمع هؤلاء في الجنوب. ويشير بروكبيوس في زمن "بليزاربوس ٤٩٤-٥٦٥م." الى تاجر سوري يدعى انطيوخوس كان يتزعم الحزب الروماني. كما

يعرف المرء من جهة أخرى الكثيرين من هؤلاء السوريين كانوا يقيمون في ضواحي باريس. وفي سنة ٥٩١م. في ظل حكم كلتير الثاني (٥٨٥-٦٢٨)، كان احد السوريين أسقفا لباريس، بينما مواطنوه يشغلون العديد من المراكز الكهنوتية، مما أثار نقمة رجال الدين من الوطنيين الأصليين. وذكر غريغوار التوري ان غونترام ملك بورغونيا واورليان (٥٦١-٥٩٣م.) عندما دخل الى اورليان سنة ٥٨٥، تلقى موعظة بالسريانية القاها عليه اسقف اورليان السوري. فالسوريون هم الذين ادخلوا الى غاليا صورة المسيح على الصليب. ولم يكن احد يجرؤ من قبل على إظهار هذا الإله على خشبة العقاب المهينة، التي كانت خاصة بالعبيد. وفي سنة ٥٥١-٥٥٥ حدثت زلازل وموجات بحرية عالية وعنيفة بدرجة غير مألوفة، فهزت جميع مدن الساحل اللبناني والسوري وقضت على اكثر من ٢٥٠ الف نسمة. وقد دمرت بيروت دماراً تاماً وماتت تحت الأنقاض اكثر من ثلاثين الف نسمة.
